القصيدة بوصفها تميمة لغوية ضد وهم الاكتمال: قراءة في قصيدة باهرة عبد اللطيف "بوحٌ لا يعني أحدًا سواي"

د. إسماعيل نوري الربيعي

لا يمكن قراءة قصيدة باهرة عبد اللطيف بوصفها بوحا ذاتيا مباشرا أو اعترافا نفسيا بسيطا، بل بوصفها خطابا لغويا تتشكل فيه الذات عبر التوتر بين القول والصمت، بين الرغبة والنقص، وبين ما يُقال وما يستعصي على القول. وفق منهج جاك لاكان، الذات لا تسبق اللغة ولا تتحكم بها، بل تولد داخلها منقسمة، مشروخة، ومحمولة على دوال لا تمتلكها بالكامل. من هنا، فإن القصيدة لا تكشف عن ذات متماسكة تروي تجربتها، بل عن ذات تتكون أثناء الكتابة، وتعيد ترتيب علاقتها بذاتها وبالعالم من خلال شبكة من الدوال المركزية، أبرزها الوحش، الوطن، الأمل، والصمت. العنوان "بوح لا يعني أحدا سواي" يضعنا منذ البداية أمام مفارقة لاكانية واضحة. فالقول الذي يدعي الانغلاق التام هو في الحقيقة أكثر أشكال الخطاب انفتاحا على الآخر. لاكان يؤكد أن كل خطاب هو خطاب موجّه، حتى وإن أنكر صاحبه ذلك. العنوان إذن لا يلغي الآخر، بل يستحضره ضمنا بوصفه ذلك الحضور الغائب الذي لا يمكن للغة أن تتجاهله. هكذا تدخل القصيدة فضاء الرمزي منذ سطرها الأول، معلنة أن الذات تتكلم لا لتشرح نفسها، بل لتكشف انقسامها.

الوحش بوصفه تجليا للواقعي:

يمثل "الوحش الغافي في صدري" الدال الأكثر كثافة في القصيدة، وهو مفتاح القراءة اللاكانية للنص. فالوحش هنا ليس مجرد استعارة شعرية عن القلق أو الخوف، بل هو تمثيل لما يسميه لاكان "الواقعي"، أي ذلك البعد من التجربة الذي لا يمكن احتواؤه كليا داخل اللغة أو النظام الرمزي. الواقعي لا يظهر بوصفه معنى واضحا، بل بوصفه ثغرة، ألما مبهما، حضورا صامتا يضغط على الذات من الداخل. تحية الشاعرة للوحش وقولها "سلاما له" تكشف عن موقف بالغ الأهمية. الذات لا تحاول القضاء على الوحش ولا إنكاره، بل تعترف بوجوده وتتعلم منه. في التحليل النفسي اللاكاني، لا يكون الشفاء في محو الواقعي، بل في إعادة تنظيم العلاقة معه. الوحش يتغذى من قلق الوطن، أي من جرح جماعي وتاريخي، لكنه يسكن الصدر بوصفه تجربة فردية لا يمكن فصلها عن البنية النفسية للذات. تعليم الوحش للذات التوقف عن العدو والتأمل في الخطوة يشير إلى انتقال من الإنكار إلى الوعي. فالعدو هنا ليس حركة جسدية فقط، بل هو هروب دائم من مواجهة الذات مع نقصها. التوقف هو لحظة مواجهة، لحظة قبول بأن الذات لا تستطيع الاستمرار في مطاردة وهم الاكتمال. الوحش إذن ليس عدوا خارجيا، بل هو المعلم القاسي الذي يجبر الذات على الإصغاء إلى ما كانت تتجاهله.

الرغبة والذاكرة وانزلاق الدوال:

تشتغل القصيدة على حركة مستمرة بين الماضي والحاضر والمستقبل، دون أن

تستقر في زمن واحد. هذا الاضطراب الزمني يمكن فهمه لاكانيا بوصفه نتيجة لانزلاق الدال. فالمعنى لا يثبت، والذاكرة لا تستعاد بوصفها حدثا منتهيا، بل بوصفها مادة لغوية يعاد تشكيلها في الحاضر. أغاني الصبا التي هربتها عقود الحرب ليست مجرد ذكريات، بل دوال فقدت سياقها الأصلي وعادت مشوهة، محملة بآثار الفقد. صورة الرضيع المتشبث بثدي أمه تستدعي بوضوح مرحلة المرآة، حيث يتكون الإحساس الأولي بالذات عبر صورة خارجية تمنح وهم التماسك. استدعاء هذه الصورة في القصيدة لا يعني حنينا ساذجا إلى الطفولة، بل كشفا عن استمرار الحاجة إلى ذلك الوهم. الذات الراشدة لا تزال تتشبث بلحظات يومها بأصابع رضيع، أي أنها لا تزال تبحث عن طمأنينة رمزية تعوض انقسامها الداخلي. الرغبة في تلوين شروق الغد بلون الغروب تكشف أيضا عن منطق لاكاني دقيق. فالمستقبل لا يُبنى من فراغ، بل من بقايا الماضي. الرغبة لا تتجه نحو موضوع محدد، بل تتحرك باستمرار، مؤجلة إشباعها. لهذا لا تقدم القصيدة وعدا بالخلاص، بل تقدم حركة رغبة واعية بنقصها، راغبة في الاستمرار لا في الاكتمال.

الصمت والإنصات وإعادة كتابة الذات:

التحول الجوهري في القصيدة يحدث عند لحظة الاكتشاف. إدراك أن آلاف التفاصيل المرهقة لم تكن مهمة لصنع كتاب الحياة يمثل انهيارا لمنظومة رمزية كاملة كانت الذات تستند إليها. الأحلام، الكتب، الحوارات، الانتظار، كلها كانت دوالا اعتقدت الذات أنها تمنح المعنى، لكنها تكتشف فجأة هشاشتها. قذف هذه

العناصر من نافذة الأيام ليس رفضا للحياة، بل رفضا للوهم الذي كان يحجب الإصغاء الحقيقي. النافذة هنا حد فاصل بين الداخل والخارج، بين ما يُرى وما يُقصى. ظهور الوحش من خلالها بالصمت يؤكد فكرة لاكان الأساسية بأن ما يتم تجاهله يعود دائما في صورة أخرى. الرسائل التي بثها الوحش سرا ولم تُسمع تعود الآن بقوة، بعد أن صمت جوق العصافير المعشش في الرأس منذ الولادة. صمت العصافير هو صمت الضجيج الرمزي، صمت الأصوات التي كانت تملأ الوعي دون أن تسمح بسماع الألم الحقيقي. الإنصات إلى نحيب الوحش هو لحظة مواجهة مع الواقعي. ليست لحظة شفاء، بل لحظة صدق. الذات لا تدعي السيطرة، بل تقبل بالإنصات. في هذا القبول يتشكل نوع جديد من العلاقة مع النفس. شحن القلب بالأمل لا يعني إنكار الأنين، بل تنظيمه. الأمل هنا ليس خلاصا، بل إيقاعا يسمح للقلب بالاستمرار. إطلاق سراح القلب والانطلاق متخففة "منه ومني" هو تعبير بالغ العمق من منظور لاكاني. الذات لا تتخلص من ذاتها، بل تتحرر من التماهي الكامل معها. إنها لحظة فصل رمزي تسمح بالعيش دون ادعاء الامتلاء أو الخلود. هكذا تنتهي القصيدة لا بنهاية مغلقة، بل بفتح أفق جديد للوجود داخل النقص.

وفق منهج جاك لاكان، لا تقدم قصيدة باهرة عبد اللطيف حلا نفسيا ولا عزاء أخلاقيا، بل تقدم لغة قادرة على احتواء الانقسام دون إنكاره. التميمة التي تتحدث عنها الشاعرة ليست أداة سحرية للشفاء، بل هي اللغة نفسها، حين تُستخدم لا لتغطية الجرح، بل لتسميته دون ادعاء السيطرة عليه. في هذا المعنى، تصبح

القصيدة فضاء يعيد فيه القارئ أيضا علاقته برغباته وألمه وواقعه. إن قوة النص لا تكمن في جمال صوره فقط، بل في صدقه البنيوي. الذات هنا لا تدعي الحكمة ولا البطولة، بل تعترف بإنسانيتها الهشة. ومن خلال هذا الاعتراف، تفتح القصيدة إمكانا نادرا للقراءة لا بوصفها استهلاكا لمعنى، بل بوصفها تجربة إنصات لما يسكننا جميعا، ذلك الوحش الغافي الذي لا يطلب الخلاص، بل الاعتراف.

*****

"بوحٌ لا يعني أحداً سواي"

من ديوان (نساء على باب القصيدة)

باهرة عبد اللطيف

سلامًا
للوحشِ الغافي في صدري
أُطْعِمُهُ كلَّ مساءٍ قلقي على وطني
مُلتاعةً مجزوعةً
أُلقي إليهِ حُمولةَ الأملِ
أوزّعُها على صِغارِهِ
أقبّلُ جباهَهُم المُتَغضّنةَ
أواسي كُهولتَهم المُسرِعَةَ
وأُرجئُ شيخوختي.

سلامًا لَهُ

علّمني حينَ توقفْتُ عنِ العَدْوِ

أنْ أتأمّلَ خَطْوتي

أنْ أقبِضَ على لَحَظاتِ يومي

بأصابعِ رَضيعٍ يتشبّثُ

بثدي أُمّهِ

أنْ أَغرِفَ مِن لَوْنِ الغُروبِ

ما أُلوّنُ بِهِ شُروقَ غَدي

أنْ اسْتَعيدَ أَغاني صِبايَ

التي هَرَّبَتْها عُقودُ الحربِ

الكابيةِ

أنْ أبرمَ هُدنةً

-لا أَنقُضُها بعدَ قليلٍ-

بيني وبينَ نفسي

بيني وبينَكُم

أنْ أُرْخي أصابعَ مجنونةً

تُقَلّبُ الأيامَ في مُفكّرتي

لأُصغي بِصبرٍ

إلى مَنْ أُحِبّ.

اكْتشفتُ الآنَ أنَّ آلافَ التفاصيلِ

المُرهِقةَ المتشابهةَ

لم تكُنْ أبدًا

مُهِمّةً

لِصُنعِ كتابِ حياتي...

الأحلامُ

المُنجزُ مِنها والمُرْجَأُ

هاجِسُ التَطوافِ في الشّوارعِ الحزينةِ

الحوارُ المُضْنيُ معَ الأرواحِ الغريبةِ

انتظارًا لِمعجزةٍ لم تردْ في الأسفارِ

الكتبُ والصفحاتُ التي التهمتْ عينيَّ

الوجوهُ التي أَتعبتني بلامُبالاتِها

الآنَ

أقذفُ بِها جميعاً

مِنْ نافذةِ أيّامي

حينَ أَطَلَّ الوَحْشُ

بِصمتٍ مِنْ خِلالِها

بَعْدَ أنْ أَرهقتَهُ بِنَزَقي

بتَجاهُلِ رَسائِلَهِ التي

بَثَّها لي سِرّاً بِحَذرٍ شديدٍ

وأهْملتُها بحِكمَةٍ مُتعاليَةٍ

وخلودٍ مَوْهوم.

الآنَ

إذْ صمتَ جوقُ العصافيرِ

المُعَشّشِ في رأسي

منذُ وِلادتي

أصغيتُ

لِنحيبِ الوحشِ الغافي

في صدري...!

ما زلتُ أشْحَنُ قلبي

بحُمولةِ الأَملِ

وأضْبِطُ وَجيبَهُ

على أَنّاتِ الوطنِ

غيرَ أَنّي

أَطْلقتُ أَسارَهُ

وانطلقتُ مُتخففَةً

مِنْهُ

و

مِنّي

****